مقدمة

لاتحتفل الشعوب بذكرى الانتصارات او المعارك او مراحل الاستقلال لتنشد اناشيدها او تعزف الحانها او توزع الحلوى وترفع الأعلام.

لكن الشعوب العظيمة تحتفل بهذه المناسبات الخالدة فى تاريخها لتتذكر شهدائها وابطالها الذين صنعوا المجد وفى الوقت ذاته والاهم أيضا أن تسترجع الذكريات لا للمديح والثناء ولكن للتعلم والعبر

- فمعركة تأميم القناة او حرب السويس ليست قصص بطولات خارقة او حديث عن قوة الانتصار او صلابة المواقف (رغم ان هذا حدث بالفعل وتفاصيله تدعو للفخر).
- ومعركة تأميم قناة السويس ليست مجرد ابراز دور فرد وتضخيم او بلورة تاثير دور الزعامة السياسية (رغم ان الكتابات والتحليلات الغربية قبل العربية قد اكدت على دور ناصر وسطوع نجم زعامته الاسطورية).
- وحرب السويس لم تحدث فجأة ولم تكن وليدة اللحظات والنضالات التي سبقتها مباشرة ولاتقف حتى عند مرحلة قيام الثورة بل تمتد طويلا مع امتداد الاحداث لتصل الى اللحظات الاولى التي بدأت قوات الاحتلال البريطانى فيها تقصف الاسكندرية اولا ثم تحتل القاهرة ثانيا ثم مصر كلها ثالثا، لقد ارتبط تاريخ القناة بتاريخ النضال من اجل التحرير ورحيل القوات البريطانية عن مصر، وتداخل تحرير الارض مع تحرير القناة (اى عودة السيادة المصرية عليها) ليصبحا مطلباً شعبياً ووطنياً تجمع عليه القوى السياسية والنخب المصرية منذ نهايات القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين.
- ثم قبل كل ذلك يبقى حفر قناة السويس حلماً راود المصريين لآلاف من السنين لم تنقطع فيها المحاولات والتجارب البديلة، وفى مرحلة حديثة ومع قصة حفر القناة واغتصابها على يد الاستعمار الغربى أصبحت القناة مطمعاً ومركزاً للتنافس والصراع بين القوى الاستعمارية، وكانت الطريق الممهد للاحتلال البريطانى خاصة فى ظل سلاسل الديون وضعف الارادة السياسية وانعدام الولاء الوطنى لدى النخبة الحاكمة وصناع القرار السياسى المصرى آنذاك.

فمن حيث البطولة وقصص الفداء والتضحية فان معركة تأميم القنـاة او حـرب السويس مليئة بالقصص والوقائع، ويقع فى مقدمتها الاصرار على حقنا فى اسـترجاع القناة لنا وفى رفض التهديدات البريطانية /الفرنسية ثم الاصرار على مواجهة العدوان الثلاثى رغم عدم التكافؤ العسكرى، فالتحام الجيش بالشعب فى هذه المواجهة، واخيرا بطولة شعب بورسعيد فى مقاومة القوات الغازية ببسالة ظل يضرب بها المثل مصريا وعربيا ودوليا حتى وقت قريب.

- ان اختلاط دم العسكريين مع دماء الجماهير امر يدعو للعظة والفخر.
- كما ان اندماج دماء المسلمين والمسيحيين من المواطنين ببورسعيد يدل على الوحدة الوطنية العميقة وصلابتها دون بيانات وشعارات تطلق او جلسات صـلح ووفـاق تعقد، فنقرأ اسماء شهداء (منير فهيم اقلادبولس / يونس كامل يونس سـعد/ سـعد غالى جرجس/ روفائيل رأفت بطرس/ رفقه عزيز جريس/ جوده اسكندر مـساك/ جلال لبيب اسكندر مرزوق) بجانب اسماء (محمد مغوله / السيد سـليمان محمـد هاشم / مصطفى عبدالسميع / محمود احمد رجب / محمد سليمان حسين / محمود عبدالمقصود / محمود على احمد / على ابوزيد)
- ويتفاعل الدم العربى الواحد فى انبل صوره، فهاهو ضابط البحرية البطل السوري جول جمال الذى اغرق المدمرة الفرنسية الحديثة والعملاقة امام سواحل البـرلس، يقدم حياته هو ورفاقه في مصر وأصبحوا شهداء لا فارق بينهم وبـين أي شـهيد مصري آخر.
- إن قراءة يوميات التأميم تساعد بالضرورة على إنعاش الذاكرة التاريخيـة لـشعبنا ولإضاءة الطريق أمام أجيالنا الجديدة والمستقبلية فى معرفة تاريخهم والاعتـزاز بأيامهم المجيدة ومن ثم الثقة فى قدرات شعبهم وفـى أنفـسهم والانطـلاق نحـو المستقبل بخطى ثابتة وقادرة على صنع الآمال وتحقيق الانتصارات، وكما يـذكر المؤرخ الجبرتى فان (التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلـدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم ..... وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية مـن الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والـشعراء والملـوك والـسلاطين وغيـرهم والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي وكيف كانت ..

وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن)

- إن معركة تأميم قناة السويس أكدت على دور الزعامة السياسية وتأثيرها فى نضج الأحداث وتفجير الطاقات الشعبية للأمة، ونحن العرب كنا من الذين امتلكوا تراثاً طويلاً في صياغة الدور الذي يقوم به البطل، وفي تحديد صفاته وشخصيته. (فلم يجهل العرب الذين من أرضهم خرج مخترع العجلة في التاريخ حاجتهم إلي أيد حازمة تتولى قيادة العربة، وتسمك بزمام خيلها) بل أسرفوا فى تصور شخصيته وتحديد المطلوب منه كما يرى د. انيس صايغ، فتحلم به الامة منقذا لها يضرب التنين بسيفه دون أن ينزل عن ظهر جواده.
- قبل تأميم قناة السويس كانت النظرة الشعبية العربية لعبد الناصر لاتتعدى كونه رجلاً عسكرياً قاد مع زملائه انقلاباً عسكرياً فى يوليه ١٩٥٢، وكانت تجارب الانقلابات العسكرية المتتالية فى المشرق العربى لاتبشر بالخير، لكن إشارات عديدة جاءت من القاهرة جعلت البعض يتمهل فى أحكامه، والأخر ينفى وجه الشبه مع ما يجرى بالمشرق.
  - خاصة وان كسر احتكار السلاح كان خطوة شجاعة وأثارها مدوية، ومواجهته للإستعمار مع دعمه لثورات التحرير
  - وتفاعل ذلك مع إلغاء الملكية والإصلاحات الاجتماعية البارزة، لكن كل هذا لم يفجر طاقات الجماهير العربية وأحزابها ونخبها المتعطشة للتغيير
  - بل كان تأميم القناة والثبات فى مواجهة الضغوط ثم مواجهة العدوان الثلاثى وعدم الاستسلام هى الأحداث الفاصلة لموقف الجماهير العربية فى اكتشاف الفارس / المنقذ الذى يضرب التنين بسيفه دون أن ينزل عن ظهر جواده.
- في تقرير بأغسطس ١٩٥٦ نَشرَه المعهدَ الملكيَ للشؤون الدولية تحت عَنوانَ "بريطانيا وقناة السويس" كرّرُ عدّة مرات الضرورة الإستراتيجية لقناة السويس بالنسبة إلى بريطانيا؟ وكانت النتائج العسكرية بالمقدمة ثم النتائج الإقتصادية للقناةِ والنفطِ الذي يَمْرُّ من خلالها، ووقعت حرب السويس كنتيجة طبيعية لصدام الاستراتجيات، ومن نتائجها الهامة التى رصدوها هم، أن الحرب كشفت ضعفَ

تحالفِ منظمة حلف شمال الأطلسي وتخطيطه وتعاونِه (مِنْ وجهةِ نظر الجنـرالِ ديغول)،. وفرض نهايتها أشارتْ إلى الانهيار الجازمِ لبريطانيا وفرنسا كـسلطات عالمية، وعجّلتْ الأزمةُ مِنْ تصفيةِ الاستعمار، وسقط انطونى ايدن وقدم اسـتقالته من رئاسة مجلس الوزراء وارتفعت مكانة ناصر كثيراً، مما ساعدُه على تـرويج الوحدة العربيةِ ولما لا وهو الفارس الذى حارب التنين.

- ولأنه أخيراً كان يمثل ذلك التيار المتصاعد لحركة التغيير العربية، ولحركة التحرر الوطني في العالم الثالث وبدأ نجمه يبرز بجانب تيتو ونهرو كقيادة لجبهـة عـدم الانحياز، فإن القوى الاستعمارية الكبرى قررت ضربه في بداية الطريـق بحيـث يكون عبرة للآخرين، وإنذاراً موجهاً لهذا التيار وتلك الجبهة، وأعلن أيـدن هـذا الموقف بوضوح عشية تأميم قناة السويس حينما أرسل إلي أيزنهاور يقول له: (آن الأوان لموقف حاسم ونهائي من ناصر، إن نفوذكم ونفوذنا يضيع إلي الأبد وبـلا رجعة في الشرق الأوسط إذا لم نحسم كل شئ).
- لكن الرياح لم تأت بما تشتهيه سفنهم، فما لبثت الحرب ان إنتهت والعدوان الثلاثى فشل فى تحقيق أهدافه "وتنسحب القواتَ البريطانيةَ والفرنسيةَ كليـاً مِـنْ الأرضِ المصريةِ" وفي ٨ أبريل/نيسانِ ١٩٥٧، أُعيد فتح القناة، كما قامت إسـرائيل بَعْـدَ شهر بالانسحاب مِنْ سيناء، ونتيجة الفشلِ المحـسوسِ جـداً لمحاولـةِ الاحـتلال والأزمة والمحاولةِ البريطانيةِ الفاشلة لإسقاط ناصر، ارتفعت مكانته و"توج كرئيس وزعيم لمصر وللعرب بلا منازع".

إن القناة حلم راود المصريين لآلاف من السنين لـم تنقطـع فيهـا المحـاولات والتجارب البديلة، وفى مرحلة حديثة ومع قصة حفر القناة واغتصابها على يـد الاستعمار الغربى أصبحت القناة مطمعاً ومركزاً للتنافس والصراع بـين القـوى الاستعمارية، وكانت الطريق الممهد للاحتلال البريطانى.

- لذا ارتبط تاريخ القناة بتاريخ النضال من اجل التحرير ورحيل القوات البريطانيـة عن مصر، وتداخل تحرير الارض مع تحرير القناة ليصبحا مطلباً شعبياً ووطنيـاً يجمع عليه المصريين.

- إن قصة وتاريخ حفر القناة بصورها المختلفة من عهد الفراعنة مرورا بالعصور التالية والإسلامية منها ووصولا الى العصور الحديثة وخروج قناة السويس الى الوجود، تشير بكل وضوح الى حقائق هامة ومصيرية:
  - أولها إن القناة ضرورة فرضتها الجغرافيا وموقع مصر.
  - وثانيها انها محاولة البشر لاستثمار الموقع ولتطويره اي الجهد الحضارى الذى يعيد تشكيل الواقع والموقع.
  - وإنها قد ارتبطت بالعوائد التجارية والاقتصادية.
  - كما اندمجت فى الوقت نفسه مع ضرورات الامن القومى ورسم الحدود وصد الهجمات المغيرة على الوادى عامة والدلتا على وجه الخصوص.
  - وفى سبيل هذا (صنع الحضارة وصياغة الحقائق) دفع الشعب المصرى الكثير من عرقه وماله وتضحياته وضحاياه

لكل ذلك لم يكن غريبا ان يوضع الجلاء وتاميم القناة فى بوتقة واحدة فى برامج التنظيمات والأحزاب السياسية المصرية ابتداء من عشرينيات القرن الماضى. اى قبل الثورة وقبل ان يتخذ عبد الناصر قراره بعشرات السنين.

ان صفحات قناة السويس وتاميمها مليئة بالتجارب ومشحونة بالعواطف والعبر، وقد تناول احداثها العديد من المؤلفين والمحللين، لذا حاولنا هنا الايجاز من جهة والتركيز على ايام التاميم من جهة اخرى، والتعريف بالشخوص والاحداث قدر المستطاع بما يتيح للاجيال الجديدة اقتحام اجواء هذه المرحلة، ولعل هذه المحاولة المتواضعة ان تنجح فيما تصبو اليه .....

وعلى الله قصد السبيل...

مجدى محمد رياض

القاهرة ٢٠١٠